مجلة اللغة العربية وآدابها علمية محكمة
السنة ١٤، العدد ٣، خريف ١٤٤٠هـ
صفحة ٤٠٧ – ٤٢٦

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
https://jal-lq.ut.ac.ir/

إطالة على قصائد عنترة بن شداد في المنظور النفسي وفقاً لنظرية أدلر

عباس اقبالي[1]*، سمانه نقوي[2]

١. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كاشان
٢. طالبة الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كاشان

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٧/١١/١٤ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٨/٩/٣)

الملخّص

بعد ما أفاض "فرويد" وأتباعه كـ"يونغ" و"آدلر" في الحديث عن اللغة والشعور واللّاشعور أخذ التحليل النفسي تطوّر واتّسعت آفاقه وتنوّعت وسائلُه في دراسة النصوص الشعرية واستخلاص رموزها وتحوّل إلى وثائق نفسية للشعراء القُدامَى، جاهليين وإسلاميين ففي منهج التحليل النفسي يدرس النصَ الأدبي على المعايير النفسيّة ويحلّل ويُحاول أن يكشف العلاقات النفسيّة بينَ العمل الأدبي وصاحبه. ففي هذه المقالة يُدرَس شخصيّةُ عنترة بن شدّاد العبسي، الشاعر الجاهلي، دراسة نفسية وتحلّل نفسيّات الشاعر مستندا إلى أشعاره وسيرة حياته. وذلك عبر المنهجي التوصيفي- التحليلي والمبني على النقد النفسي حسب نظرية «عقدة النقص» لألفرد آدلر تتبّيّن فيها ما فعلت «عقدة النقص» بعنترة وتبلورت في أشعاره. وتتناول الدراسة المحورين الرئيسين وهما: الأسباب الّتي تؤدّي إلى عقدة النقص، والمظاهر الناتجة عنها وقد توصّلت الدراسة هذه أنّ الكبت أو عقدةَ النقص من العوامل التي أثرت في شخصية عنترة فأجَجّت طموحه إلى التسامي والتفوّق واتّجه الى المجد والشعر والفروسية وإتساقا مع أساليب الحياة الجاهلي كان الشاعر يدافع عن قبيلته ويستهلك ماله في الخمر لصيانة عرضه ويتعففّ عند المغنم.

الكلمات الرئيسة

التسامي، التعويض، الدراسة النفسية، عقدة النقص، عنترة بن شداد العبسي.

---

* الكاتب المسؤول
Email: aeghbaly@kashanu.ac.ir

مقدمة

بعد ظهور الدراسات النفسية على أيدي "فرويد" وأتباعه كـ"يونغ" و"آدلر" الّذين أفاضوا في الحديث عن اللغة والشعور واللّاشعور أخذ التحليل النفسي تتسع في دراسة النصوص الشعرية ففي منهج التحليل النفسي يدرس النصَ الأدبي على المعايير النفسيّة؛ فيحلّل ويُحاول الدارس أن يكشف العلاقات النفسيّة بينَ العمل الأدبي وصاحبه؛ فهو يهتمّ بالتعرّف على طبيعة العمل الأدبي وتكوينه في داخل الأديب من الوجهة النفسيّة. وقد تنبّه لأثر النفس قدام نقاد الأدب وربطوا بين هذه الدوافع والنتاج الأدبي، فإبن قتيبة مثلاً يرى «أنّ الشعر استجابةٌ لدواعي نفسيّة معيّنه يتحكم فيها الزمان والمكان والجرجاني يرى إختلاف الطبائع قد يؤدّي إلى إختلاف في المعاني والألفاظ في الشعر» (حسين، ١٩٩٨: ٢٣).

فليست علاقة الأدب بعلم النفس مسألة حديثة العهد؛ بل هي قديمة قدم المادة الأدبية نفسها ونستطيع أن نقول: «إنّ التحليل النفسي تطوّر واتّسعت آفاقه وتنوّعت وسائلُه في دراسةالنصوص الشعرية واستخلاص رموزها وتحوّل إلى وثائق نفسية للشعراء القُدامَى، جاهليين وإسلاميين بفضل ما أدخله النقّاد المحدَثون عليه من معارف نفسيّة حديثة» (عبدالرّحمن محمّد، ٢٠٠٠: ١٢٦) فنقّاد العصر الحديث قد اتّسعوا في الأخذ بهذا المنهج وتتبع فيه أربعة أوجه: ١. دراسة المؤلف أو الشاعر النفسيّة عن طريق مؤلفاته وأعماله. ٢. الدراسة النفسية لعمليّة خلق الأثر في مراحل تطوره. ٣. دراسة نفسية لتأثير الأعمال الأدبيّة أو الأدب في القُرّاء. ٤. التحليل النفسي للآثار الأدبيّة وللأشخاص والقضايا المقترحة في العمل الأدبي (شايگانفر، ١٣٨٦: ١١٧).

فهناك علاقة نفسيّة بين العمل الأدبي وصاحبه، بين القريض وصانعه. في هذا النمط من التحليل يُمكن العثور على الخصائص النفسيّة المتواجدة في صاحب الأثر وصانعه. ومن هذا المنطلق يمكن التعرّف على شخصية الشاعر؛ فلذلك إنّ الدراسة النفسيّة في ديوان عنترة بن شداد العبسي ـ الأنموذج المختار في دراستنا هذه ـ تدلّنا على بعض مصاديق ما قاله آدلر في الدوافع النفسيّة كـ«عقدة النقص». والمراد عن عقدة النقص: «عقدة الخجل من الذات، أي أنّ ألفرد يعي بنوع من العجز (الصحي، أو الذهني أو الاجتماعي) أو شعوره المزعج بعدم الكفاءة أو بتأكيده بأنّه ليس على المستوى اللازم وأنّه معرَّض للفشل. هي شعور الفرد بوجود عيب فيه يشعر بالضيق والتوتّر ونقص في شخصيّته مقارنةً بالآخرين ويدفعه بالتعويض لهذا النقص بشتّى طرق» (آدلر، ١٣٧٩: ٢٢).

فنرى أنّ عنترة قد أقحم إرهاصات عقدة النقض في قصائده وأنّ ما دفعنا إلى مثل هذا الحُكم هو قرائتنا لسياق قصائده ومن منطلق دراسة نفسيّة يتمّ تحليلها من داخل النصّ وخفاياه، كما يرى جان بيلمان نويل: «أنّ القصيدة تعرف اكثر من الشاعر» (نويل، ١٩٩٧: ٩). وصحيح أنّ اللغة اداةٌ للتعبير وهي الوسيلة الّتي ترسم دلالات النصّ، إلاّ أنّ المهمّ هو المحتوى يعني أنّ النص يشتمل على المعرفة النفسية الكامنة في داخله فهناك أسئلة منها:

١. كيف تجلّت ملامح المنهج النفسي لألفرد آدلر في شعر عنترة؟
٢. ما هي الدوافع النفسية لعقدة النقص في عنترة بن شداد ؟
٣. كيف أثّرت عقدة النقص في شخصية عنترة، وتبلورت في أشعاره؟

والفرضيات منها:

١. الدوافع النفسية تسبب أن يلجأ عنترة إلى آليات نفسية نحو التسامى، التعويض، التخييل وينطبق شعره على آراء آلفرد النفسية.
٢. انتماء عنترة إلى أم أمة وسواد وجهه هما الدافعان الرئيسان لعقدة النقص في عنترة.
٣. عقدة النقص أثرت في شخصية عنترة، وأججّت طُموحَه إلى المجد والشعر والفروسية والتسامي أو التفوُّق.

خلفيّة البحث

إنّ بحث التحليل النفسي قد حُظي بدراسات عديدة منها: ١. التحليل النفسي في اشعار صعاليك على أساس نظرية آدلر (١٣٩٠ش)، عباس عرب ويونس حق بناه، فصلية محكمة للغة العربيّة وآدابها، جامعة طهران. الكاتبان في هذه المقالة يدرسان قصائد الصعاليك على أسس نظرية آدلر حيث أنه قام بمطابقة البيئة الّتي كان يعيش بها الصعاليك مع سلوكيّاتهم. ٢. النقد النفسي للشخصيّة في أشعار المتنبّي (١٣٩١ش). يحيى معروف ومسلم خزلي، فصلية الأدب العربي، العدد ٢، ص٢١٥-١٩٣. ركزت المقالة على شخصيّة المُتنبّي تطبيقاً لنظريّة فرويد. ٣. التحليل النفسي لشخصية بشاربن برد من خلال جولة في حياته وأشعاره (١٣٩١ش). حميد احمديان وفهيمه ميرزايي، فصليّة لسانٌ مبين، العدد ٨، صص١-١٨. قد تطرّقت هذه الدراسة الى التحليل النفسي لشخصية بشار وذلك على أسس مذهبي يونغ وآدلر. على رغم هذه البحوث القيمة إلا أنّ هذه الدراسة، قُدمت في شكل مختلف عن سابقيها وإنّها جهد قائم على البحث عن حياة عنترة الشاعر الجاهلي وتطبيق خصائله الشعريّة مع نظريّة آدلر كشفاً عن خصائص الشاعر الفطريّة وما تبلورت من آثار عقدة النقص في أشعاره.

شخصية عنترة بن شداد العبسي

إنّ عنترة بن شداد العبسي هو أحد شعراء العرب الجاهليين وفرسانهم وأبطالهم وهو من أصحاب المعلّقات. أمه كانت أمَة حبشيّة يقال لها زبيبة، وكان لعنترة أخوة من أمّه عبيد وكان هو عبداً أيضاً؛ لأنّ العرب كانت لا تعترف ببني الإماء إلاّ إذا امتازوا على أكفائهم ببطولة أو شاعرية أو سوى ذلك. ولكن عنترة سرعان ما اعترف أبوه به لبسالته وشجاعته وكان السبب في ذلك أنّ بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس فاستاقوا إبلهم فتبَعهم العبسيون وفيهم عنتره، فقال له أبوه: كرٍّ يا عنترة فأجابه وهو يحقد عليه استعباده إياه: العبد لا يحسن الكرَّ إنما يُحسن الحلب والصرّ. فقال: كرّ وأنت حرٌّ، فكرّ وقاتل قتالا شديدا حتى هزم المغيرين واسترجع الإبل فاستلحقه أبوه وأخذ اسمه منه يومئذٍ يسير وذكره يطير حتى أضرب مثلا في الجرأة والإقدام (الزيات، ١٩٨٥: ٦٧). يقول شوقي ضيف: «وقد طارت شهرة عنترة بالفروسية والشجاعة النادرة منذ الجاهلية وما زالت ذكراه عالقة بأذهان العرب إلى اليوم فهو مثلهم الأعلى في البسالة والبطولة الحربية وقد اتّخذت من أخباره نواة للملحمة المعروفة باسمه» (الضيف، ٢٠٠٣: ٢٠٧). فإنّه قد وصف نفسه وقال:

إنّي إمرؤ من خير عبس منصباً ... شطري وأحمي سائري بالمَنصَلِ
وإذا الكتيبةُ أحجمت وتلاحظت ... ألفيتَ خيراً من معمٍّ محوّلِ

(الطموس، ٢٠٠٢: ١٠٢)

فنرى أنّ عنترة يخوض في مجال الفخر الذاتي ليرفع ما لحقه من أذى حين امتهن وعيّرَ بسواده وضعة أصله. وواضح أنّه يُشير إلى كرمِ أصله الأبوي وتنوب عنه شجاعته واقتحامه للحروب حتّى غدا في قومه خيراً من عمّه وخاله من سادتهم فلا يُغني القبيلة عنه.

كانت الفروسيّة هي الوسيلة المثلى الّتي تمكن عنترة من تغيير قيمة بقيمة لهذه الأخلاق النبيلة وكان يتعصّب بحريّته وإقناعه بحقوقه الطبيعيّة وبذلك فقد رفض الضيم والعبوديّة والذلّ وكان يُلحّ على أبيه أن يعترف له بأبوّته ويلحقه بنسبه ففي شعره يصوّر الصفات الفروسيّة بصفات النبل الأخلاقي وعلوّ الهمّة والشجاعة بهدف الوصول إلى قلب حبيبته عبلة. وقد قضى أوقاته في الحروب والقتال وقول الشعر فصارت العرب تعدّه من فحول أبطالها (الأعلم الشنتمرّي، دون تا: ٤٥٩).

المنهج النفسي لألفرد آدلر

بدأ المنهج النفسي بشكل علمي منظّم مع بداية علم النفس ذاته منذ مائة عام وعلى وجه التحديد في نهاية القرن التاسع عشر بصدور مؤلّفات (سيغموند فرويد) فإنّه كان يقول: إنّ "اللاّشعور" او "العقل الباطن" هو مستودع للرغبات والدوافع المكبوتة (فضل، ١٤١٧: ٦٧). وقد بالغ فرويد في وصف الأديب بأنّه مريضٌ نفسيّاً وعمله يعكس عُقدتة الجنسيّة والأمراض النفسيّة ويرجع العمليّة الادبيّة الابداعيّة إلى حالة مرضية، كالعُصاب وانفصام الشخصيّة وغيرها (هويدي، ١٤٢٦: ٧٩).

أمّا آدلر؛ صاحب مدرسة«علم النّفس الفردي» يُخالف أستاذه فرويد ويعتقدأنّ الغريزة الجنسيّة هي السبب الوحيد لظهور الأمراض العصابيّة، وهي الباعث الأوّل على الفنّ ويرى أنّ الشعور بالنّقص هو السبب الرئيسي في نشأة العصاب، وأنّ الدافع الرئيسي على الفنّ هو "غريزة حبّ الظهور" أو "حبّ السيطرة والتملّك" ولعلّ الشئ الّذي يميّز آدلر عن هذا الباحث هو إهتمامه بالجانب الاجتماعي. فالدوافع اللّاشعوريّة، في تصوّره لا يمكن أن تقدّم بمفردها فهما مكتملتان للطبيعة البشريّة؛ إذ لابدّ من تفاعل عالم الشخصيّة الباطني بالعلاقات الشيئيّة الموضوعيّة وبخاصّة العلاقات الاجتماعيّة؛ لأنّ الفرد في نظره ليس كائناً معزولاً عن وسطه الاجتماعي، بل يتصرّف بما تملي عليه نزوعه الفردي ودوافعه اللّاشعوريّة. فإنّ آدلر مع هذا، لم يتعمّق السّياق الاجتماعي بتناقضاته، وبقى عنده محصوراً في غريزة حبّ السيطرة والظهور، والتعويض والرّغبات اللّاشعوريّة والطابع الوراثي. من هنا، لم يُحدث إهتمامه بالجانب الاجتماعي إنقلاباً في حركة التحليل النفسي (ليبين، دون تا: ١١٣-١١٤). فإنّ آدلر قد وصف العديد من العوامل الأخرى في الحياة الأسرية والتي يمكن أن ينتج عنها الإحساس بالنقص عند الفرد.

محاور البحث

في مجال الدوافع النفسية يرى ألفرد آدلر أنّ الناس يلجئون إلى آليّات الدفاع أو الحِيل الدفاعيّة لحماية أنفسهم ومُعالجة الصراعات والإحباطات وعلى خفض القلق حينما يواجه الناس معلومات تُثير التهديد. ومن هذه الآليات عند آدلر: التسامى، التعويض، التخييل، أسلوبُ الحياة (هويدي، ١٤٢٦: ٧٩).

التسامي

التسامي[1] هي آلية دفاعية يلجأ إليها الانسان عندما تضيق عليه الأمور ويزداد التوتّر لأعلى درجات الشدّة، وهذه الحيلة الدفاعيّة من أهمّ الحيل وأفضلها والأكثر إنتشاراً ويدلّ إستخدامها على الصحّة النفسيّة العاليّة، فعن طريقها يستطيع الإنسان أن يرتفع بالسلوك العدواني المكبوت إلى فعل آخر مقبول اجتماعيّاً شخصيّاً، فمثلاً النتاجات الفكريّة والأدبيّة والشعريّة والفنيّة ما هي إلاّ مظاهر لأفعال تمّ التسامي بها وإعلائها من دوافع ورغبات داخليّة مكبوتة في النفس إلى أعمال مقبولة تجد الرضا من أفراد المجتمع (برونو، ١٣٨٤: ١٢٥). إنّ هذه الآليّة (الحيلة) الدفاعيّة تُخفّف من شدّة الصراعات والتوتّر الداخلي لدى الانسان وذلك من خلال تحويل تلك الأفكار والصراعات إلى مجالات مفيدة وسليمة ومقبولة اجتماعيّاً كما يعتقدآدلر أنّ كل واحد منّا يسعي للتفوّق (التسامي) في حياتنا، وهذا هو السعي الذي ينتقل بنا نحو الإنجاز والكمال.

لاغرو أن نقول: كان الفخر في الشعر الجاهلي ضرباً من التسامي. فخر تبلور في التغنّي بالفضائل والمثل العليا، والتباهي بالسجايا النفسيّة والصفات القوميّة، والزهو بالأفعال الطيبة، فلذلك إنّ ألذّ أحاديث المرء عنده هو حديثه عن نفسه وخصاله وفِعاله، من الشجاعة والكرم والمروءة وحماية الجار وطيب المنبت وعراقة الأصل وإلى غير ذلك مما يزهو به الانسان ويختال به على غيره. فـ«الفخر انّما يحسن إذا كان الشاعر يمتدح بالفضائل النفسيّة والخصال الخلقيّة بعيداً عن التباهي بالامور الماديّة والقوة الجسدية أو التفاخر بالانساب والاصول والقبائل وإذا كان هذا الضرب من الفخر مقبولاً في العصر الجاهلي (الجبوري، ٢٠٠١: ٣٠١). وأفضل من هذا الصياح المتعالي، فخرُ من يفتخر بشجاعته وقوّته ويقرّ للآخرين بالفضل والبسالة وهذا الإقرار أقرب إلى روح الفروسية والرجولة. كما يسعى عنترة فيكتابة فخريّاته للقضاء على عقدة النقص الناشئة عن لونه الأسود حيث يضعه إلى جانب سيفه الأبيض ويصبغها بلوحة فنية ويربطها بالأفعال النبيلة والعالية مصوّراً نفسَه والرمحُ في يده يحارب في ساحات الوغى حتى تكون هذه اللوحة غطاءاً لعيوبه الناجمة عن لونه وعرقه أمام الناس فيقول:

يُنادوني(!) وخيلُ الموت تجري ... محلُّك لا يُعادلُه محلٌّ
وقد امسوا يُعيبوني(!) بأمي ... ولوني كلّما عقدوا وحَلّوا

1. Identification

لقـد هانـت صـروفُ الـدهر عنـدي وهانـت أهلُـهُ عنـدي وقلّـوا
ولي في كـلّ معركـةٍ حـديثٌ إذا سمعـت بـه الأبطـالُ ذلّـوا
(الطموس، ٢٠٠٢: ١٢٤)

يتحدّث الشاعر عن منزلته الرفيعة وفائدته للقوم والفخر بنفسه؛ أمّا الفكرة الرئيسة في هذه الأبيات هي الحديث عن نسبه ويريد بها تقليل أحزانه ومُواساة نفسه في زمنٍ لم تهتمّ به عشيرته وأبيه.

والجدير بالذكر أننا لا نرى آهات الحسرة متصاعدة من نفس الشاعر؛ لأنّه يرى نفسَه منيعاً والتصوير الّذي يصوّره الشاعر في ذهن القارئ هو تصويرٌ عالٍعن مناعة الطبع كما أشرنا إليه سابقاً.

ناهيك أنّ أمّ عنترة كانت جارية من الإماء فظلّ الشاعر عرضة للتهكم الكثير من قبل شبان القبيلة، كما كان مُحتقراً من قبل شيوخ القبيلة وزعمائها ومكروهاً من الشعراء والفرسان لسواد جلده وعدم نقاوة نسبه لكن أفعاله وشمائله وشجاعته تعوض ما نقصه من جهةِ النسب، ولاسيّما أنّ أباه من خير عبس حسباً ونسباً. كما يقال: «لعلّ هذا العيب هو ما جعل من فارسنا بطلاً صنديداً وشاعراً مُجيداً، فعقدةُ النقص دخلت نفساً قويّة زادتها قوّة» (الطموس، ٢٠٠٢: ٦-٧). وفي ذلك يفتخر بجلائل عمله وباهر خلاله وصدقه في منازلة الأعداء إذا ثار النقع وانعقد غبارُ المعارك، إذ هو في وسط المعمعة بإقدامه وجراءة جنانه خيرٌ من صاحب النسب ذي الخؤولة والأعمام (علي الصبّاح، ١٩٩٠: ٥٤).

إنّـي إمـرؤٌ مـن خـيرِ عَـبس منصـباً شـطري وأحمـي سـائري بالمَنصـل
وإذا الكتيبـة أحجمـت وتلاحَظـت ألفيـتَ خـيراً مـن مُعـمٍّ ومُخـولِ
(الطموس، ٢٠٠٢: ١٠٢)

يشير عنترة في قصيدته التالية إلى الدفاع عن نفسه وأمّه ضدّ العمّارة الّذي عيَّب عليه لونَه وحبشيّته. وهكذا كان في نفس الشاعر صراع بما أنّه يُعاني شعورَ النقص الإجتماعي في مجتمعه القبليّ الّذي العصبية هي الرباط الوثيق بين أفراد القبيلة (ضيف، ٢٠٠٣: ٥٧). ومن جهة أخرى يفتخر الشاعر بسيوفه البيضاء والبرّاقة ومسماره السمراء وهي من وسائله الدفاعيّة ضدّ العمارة. لميكن أمامه من سبيل للخلاص من تلك الضغوط، إلّا الشعر، وهو كان طريقه إلى الخلاص ممّا يعاني منه؛ لذلك اختار من بين أنواع الشعر «الفخرَ» إذ كان الفخرَ برأيه هو الطريق الأوّل لإزالة الضغوط الموجودة لديه، فالفخر لديه ليس إلّا غايةً

ووسيلة للتنفيس عن نقمة تختلج في نفسه النقمة على كلّ شيء فضلاً على ذلك يمكننا إحصاء العوامل الأخرى التي جعلت عنترة يكثر من فخره، من ذلك أنّه أراد أن يكون مشتهراً (الطموس، ٢٠٠٢: ٦-٧). فيقول:

فإن تَكُ أُمّي غُرابيةً ... من أبناءِ حامٍ بها عِبتَني
فإنّي لطيفٌ بِبيضِ الظُّبى ... وسُمرِ العَوالي، إذا جِئتني

(الطموس، ٢٠٠٢: ١٥٠)

إنّ دراسة حياة عنترة تدلُّنا على أنّ أهل عصره يزدرونه فيسخرون منه ويسرفون في ذلك، فعلى سبيل المثال يتهكم عليه ويعيبونه لسوادِ جلدِه، وكونه مولىً. ونرى أنّ الشاعر قد استطاع أن يوازن مُوازنة فنيّة ومعنويّة، حين يطرح سواد مظهره، يذكر أنّه يحمل في جوهره بياضاً ناسعاً يتمثّل في نبله وسماحته أو يصف ساحة القتال وشجاعته وبذلك غسل مذمّة ولادته ولونه والّذي لا شك فيه أنّه كان على خلق يجمع إلى فروسيّته الماديّة، فروسيّته المعنويّة أو الخلقيّة (الشنتمري، دون تا: ٤٥٩). فإنّه حين يفتخر يشيد بأخلاقه الساميّة وبشجاعته وفروسيّته ويقول:

يُعيرني العدا بسوادِ جلدي ... وبيضِ خصائلي تمحو السوادا
وردتُ الحربَ والأبطالُ حولي ... تهزّ أكفّها السمر الصعادا
وخضتُ بمهجتي بحرَ المَنايا ... ونارُ الحرب تتّقد اتّقادا
وعدتُ مُخضّباً بدمِ الأعادي ... وكربُ الركض قدمضت الجوادا
وكم خلقتُ من بكر رداح ... بصوت نواحها تشجي الفؤادا
وسيفي مُرهفُ الحديدين ماضٍ ... تقد شفارُه الصخرَ الجمادا

(الطموس، ٢٠٠٢: ١٠٥)

فنرى أنّ الفخر عند عنترة ليس من الموروث المُكتسب لدى القبيلة أو القوم المنسوب إليها، بل يأتي من لدن الشاعر نفسه. فالشاعر هو المصدر لهذا المجد الّذي حُظيت به القبيلة وليس العكس. بذلك فإنّ فضل عنترة على قبيلته كبيرٌ وفي ذلك ما يخفّف من أزمته النفسيّة ولاسيّما حين يُصبح أمر القبيلة مُتعلّقا بوجودِه ويكون حامياً لقبيلته ورافعاً من مكانتها بين القبائل الأخرى؛ فيجعل نفسه مدافعا للقبيلة بكلّ صدق ووفا، فيقول:

يدعون: عنترَ والرماح كأنّها ... أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدهمِ
ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقمَها ... قيلُ الفوارسِ: ويك، عنترَ أقدمِ

(الطموس، ٢٠٠٢: ١١٧)

والجدير بالذكر أنّ عبودية عنترة هي التي مثَّلت موضوعاً رئيساً لملحمة الشاعر ، تلك العبودية الَّتي جعلت الشاعرَ يُصوِّر معاناته النفسية وإحباطاته الذاتية دون أن يتحرّجَ من ذكر بعض مظاهرها الخارجية، كأن يشير ـ مثلاً ـ إلى سواد لونه، يُقارنه بطيب أفعاله ونُبل أخلاقه، وعزّة نفسه، وحُسن معشره، وفرط شجاعته يجعل منه مظهراً إيجابياً ، ففي كلّ ذلك ما أضفى على شعره عنصر التشويق والإثارة، ناهيك عن الصور الشعرية الحيّة التي أسهمت في إثراء قيمته الفنية والمعنوية ويصير شعر عنترة لافتة كاملة وصورة مثلى عن شمائله، ومناقبه (علي الصباح، ١٩٩٠: ٥٤).

إذا فاضَ دمعي واستَهَلَّ على خَدِّي ... وجاذَبَني شَوقي إلى العَلَمِ السَّعدي
أذكرُ قَومي ظُلمُهُم لي وَبَغيَهُم ... وقِلّةَ إنصافي على القُربِ والبُعدِ
بَنَيتُ لَهُم بِالسيفِ مَجداً مُشيداً ... فَلَما تَناهَى مَجدُهُم هَدَوا مَجدي
يَعيبونَ لَوني بالسَّوادِ وإنّما ... فعّالُهُم بالخُبثِ أسودُ مِن جلدي

(الطموس، ٢٠٠٢: ٢٥٤)

تفوح رائحة الحكمة المنبسطة من كلامِ الشاعر ويصوّر من خلالِ البيت التالي علوّ قدره ومكانتِه المرموقة بين قومِه وإنّه فارس كبير النفس، عالي الهمّة لا ينال منه الحقد مقصد. يتطلّع إلى المَعالي وهو الباني مجد القبيلة وكلّ ذلك لأن يتبوأ المكانة الجديدة بمَقامه ولن يجد بعد ذلك بأساً من أن يشيد بقومِه «بني عبَس» ولئن عاب عليه الأعداء سواد جلده؛ فإنّه يفتخر به ويعتبره نسبا له يوم النزال ويقول:

لا يَحصلُ الحقدَ من تعلو به الرتبُ ... ولاينالُ العلا من طبعه الغضبُ
وَمَن يكن عبدَ قومٍ لا يُخالفهُم ... إذا جفوه ويسترضي إذا عَتَبوا
قد كنتُ فيما مَضى أرعى جَمالَهم ... واليوم أحمي حِماهم كلّما نكبوا
لله دُرُّ بني عبس لقد نَسَلوا ... من الأكارِمِ ما قد تَنسِلُ العربُ
لئن تعيبوا سِوادي فهو لي نسبٌ ... يومَ النزال إذا مافاتني النسبُ

(الطموس، ٢٠٠٢: ١١)

فإنّ الكبت وعقدة النقص كانا عاملين من العوامل الَّتي أثرت في شخصية عنترة، وأجّجت طُموحه إلى المجد والشعر والفروسية وقد عوّض عقدة النقص بالتسامي أو التفوُّق، بعد أن مسَّت كبرياؤه بأفعاله وشمائله وشجاعته ومناقبه الَّتي حوّلت النقصإلى «عظمة» ومجد وتعالٍ (علي الصباح، ١٩٩٠: ٥٤). يعني إنّ عنتره بسبب وجود غريزة التفوق فيه يقوم على الرغبة في التقدير، والتفوّق، وتجاوز الذات لتأكيد الكينونة، وتحقيق الذات والتقدير الاجتماعي، في مقابل عقدة الدونية.

إنّــي امــرؤ مــن خــير عــبسٍ منصــبًا شــطري وأحمــي ســائري بالمنصــلِ
ولقــد أبيــتُ علــى الطــوى وأظلّــه حــتى أنــال بــه كــريم المأكــل

(الطموس، ٢٠٠٢: ٦٨)

لقد نرى في عنترة قصة «العبد» الَّذي صارع مِن أجل تحقيق الذات والمساواة بينه وبين الآخرين بحكم ميزاته الشخصية ـ لا أصله وفصله ـ وبحكم مشاركته في تحمّل المسؤولية في الهيجاء والحروب، فعنترة رمزٌ للبطولة، والشجاعة، والإخلاص، والحبّ، والصدق، والشهامة، والفروسية، عنترة فارس يمتطي ويظهر بالزي الميداني مجهزًا بالسيف ومنطلقًا نحو الهدف (الجهاد، ٢٠٠٧: ١٥٤).

حصــــاني كــــان دلاّل المنايــــا فخــاض غمارهــا وشــرى وباعــا
وســـيفي كـــان في الهيجـــا طبيبًـــا يـــداوي رأس مَـــن يشـــكو الصـــداعا

(الطموس، ٢٠٠٢: ٥٢)

وإنّ وعي القصيدة يكشف عن مأساويّة الشاعر الحادة وأنّه يُمارس بطوليّتة المستحيلة في كفاح الأطر المُغلقة الّتي يفرضه النظام القبلي محاولة إعادة وجوده وإثباته للدهر «وهو الحقيقة الكليّة المُطلقة الّتي أدّت بالوعي به إلى إكتشاف وهميّة المعنى وفنائية الوجود في إطار القبيلة وقيمهاالعلميّة ووعيها الجماعي المُغلَق» (الجهاد، ٢٠٠٧: ١٥٤). وقد كان عنترة امتاز وعيه الشعري بمأساويّته وبطوليّته الّتي تظهر في فعله الشعري وإنّ شعره أساس إبداعيّته وتفرّده عن غيره. اعتزاز عنترة بشعره ليس لأنّه رمزٌ لذاته فحسب بل هذا الذات في عيانيّته ولكليّته الوجوديّة قدتحوّل إلى رمزٍ تفيض بالمعنى على العالم، فعندما يقول في مطلع قصيدته الشهيرة بالمُعلّقة:

هــل غــادر الشُــعراء مــن مُتَــردّمِ أم هَــل عَرفــتَ الــدارَ بعــدَ التَــوّهُّمِ

(الطموس، ٢٠٠٢: ١١٦)

يعني الشاعر بذلك أنّه سيقول قصيدة لم يسبقه إليها أحدٌ، على الرغم من أنّ الشعراء لم يُبقوا معنى إلاّ وقد سبقوا إليه، وما ذلك إلّا لأنَّ للشعر عند العرب قيمة وجوديّة بحدّ ذاتها. ومن ثمَّ، فإنَّ القصيدة تمثّل لعنترة جانباً من إبداعيّة وعيه وجوده من أجل المعنى كفاحاً لغيره من الشعراء، كما يُكافح الفرسان في القتال ويتفوّق عليهم (هلال، ٢٠٠٧: ١٧٨-١٧٩). إنَّ إبداع المعنى وتأسيسه في الشعر يُصبح مقوّماً جوهريّاً للفارس العربي ومعياراً للتفوّق والكمال الذاتي.

التعويض

التعويض[1] حيلة دفاعيّة لاشعورية يلجأ اليها الانسان حينما يبتغي سلوكاً يعوّض به عن شعوره بالنقص، وقد يكون هذا الشعور وهميّاً أو حقيقياً، جسميّاً كان أو نفسيّاً وماديّاً. التعويض محاولةٌ لاشعوريّة تَهدف إلى الإرتقاء إلى المستوى الّذي وضعه الانسان لنفسِه، أو الّذي فرض عليه بسبب علاقته بالآخرين. قد يهدف الإنسان إلى تغطيّة الشعور بالنقص أو تحقيق مكاسب ذاتيّة مثل لفت الانتباه والعطف والإحترام أو إثارة الآخرين، أو ربّما لكي يعزّز مَوقعَه في المُجتمع الّذي يعيش فيه وآلفرد آدلر هو من قام بتنظير هذا المفهوم وتبيينه في علم النفس (برونو، ١٣٨٤: ٢٣٧).

ذلك أن الإنسان الصغير في جسمه، أو الدميم في وجهه، أو «الحقير» في مقامه، أو الذي يشعر في جسمه بعيب ما يتخذ أسلوبًا تعويضيًا كي يَستُر هذا النقص أو المركّب الذي وُلد معه أو أحدثته ظروف اجتماعية معينة. وللنقص أنواع مختلفة، فقد يكون أنفًا ضخمًا، أو قصرًا مفرطًا، أو نحولا إلى درجة الهزال، أو شوهة جسيمة ما إلخ... وفي كل هذا تحاول النفس، على غير وجدان، وبلا دراية أن تعوّض هذا النقص كمالاً، أي تجعل من عقدة الدونية إحساسًا تعويضيًا بالعظمة والرفعة والسموّ والتّعالي. ومن الأمثلة على مركب النقص التي أدّت إلى النبوغ والكفاءة ديموستينوس الخطيب الألكن الذي أصبح خطيبًا عظيمًا، تيمورلنك الأعرج، وكافور الخصي، بيتهوفن الأصموإذا كانت عقدة الدونية، في الحالة السلبية، تؤدي إلى التجاوز التعويضي بالنبوغ وتحقيق الذات والكينونة، فإنها تؤدي في حالات أخرى إلى العصاب والانكفاء والضعة والجريمة (برونو، ١٣٨٤: ٢٣٧).

فالتعويض هو المصطلح الذي استخدمه أدلر لوصف الآلية التي يمكن من خلالها السعي وراء الاعتراف أو التفوق وينظر للرغبة في التعويض باعتبارها أمر صحي؛ لأنه يحفز الناس لتحقيق إمكاناتهم. وعندما يكون الناس غير قادرين على إيجاد تعويض ناجح، يلي ذلك الشعور بالنقص. يعرّفه أدلر أنّه شعورٌ يحدو المرء إلى الإحساس بأنّ الناس أفضل منه في شيء، لذلك فان المرء غالبا ما يلجا الى اساليب تعويضية كعالم الخيال أو توكيد شخصيته بالسيطرة وارادة القوة أو القيام بتصرفات منحطة. يرى أدلر أنَّ الفروقات الفردية بين الناس قائمة على درس العوامل الوراثية والبيئية معاً (الجبوري، ٢٠٠١: ٣٠١).

1. Compensation

ففاعلية هذه الحيلة الدفاعية في عنترة أنّه قد اشتهر بقصة حبه لابنة عمه عبلة، بنت مالك، وكانت من أجمل نساء قومها في نضارة الصبا وشرف الأرومة، بينما كان عنترة بن عمرو بن شداد العبسي إبن جارية فلحاء، أسود البشرة، وذاق في صباه ذُلّ العبودية، والحرمان وشظف العيش والمهانة؛ لأنّ أبيه لم يستلحقه بنسبه، فتاقت روحه إلى الحرية والانعتاق (هلال، ٢٠٠٧: ١٧٨-١٧٩).

إنَّ تأكيد أدلر في آليّة التعويض هو النضال من أجل القوة والتفوق، وإنّ الإنسان يناضل من أجل الانتماء كما يحافظ الشاعر في جُلّ قصائده على ديمومة الفخر بالذات لإقناع قومه بضرورة الإقرار بمكانة فروسيته، جاعلاً من عبلة وسيلته في ايصال خطابه، كما كانت هي البطلة الدرامية لمعلقته وكأنَّه لا يتوقع أثراً إيجابياً لشعره في نفوس قومه ما لم يأت على ذكر عبلة، ثم يستفيض في ذكر خصاله الحربية، وما يكتنفها من رهبة تبعث الإحساس بالهزيمة والانكسار في نفوس الأعداء فيقول:

إذا لم أروِّ صارمي من دم العدا ... ويُصبح من إفرندِه الدمُ يقطر
فلا كحلتْ أجفان عيني بالكرى ... ولا جاءني من طيفِ عبلة مخبرُ
إذا ما رآني الغربُ ذلّ لهيبتي ... وما زال باعُ الشرق عني يقصر

(الطموس، ٢٠٠٢: ٣٩)

كما يرى أدلر أنّ الناس يتحركون نحو هدف له معنى فإنَّ الغاية الحقيقيةَ لعنترة هي الوصول إلى قلب عبلةِ والظفر بها، لا تعني مجرّد كسب ودّ فتاة ما، بل الهدف المنشود من وراء ذلك يكمن في تحقيق ذاتِه، فتحقيقُ أملِه يعني التحرّرُ من عبوديته في حدّ ذاتها، لأنَّ الإقتران بعبلة معناه الاعتراف ضمنياً بحريته المسلوبة. فارتفع موضع عنترة وزاذ في عبلة طمعه وكانت هي سببُ فصاحته لأنّه كلّما ذكرها إنطلق لسانه بالشعر الرّقيق.

لا ياعبلَ قد زاد التصابي ... ولَجَّ اليومَ قومُك في عذابي
وظلَّ هواك ينمو كلَّ يَومٍ ... كما ينمو مَشيبي في شبابي
عتبتُ صروفَ دهري فيك حتّى ... فني أبيك عُمري في العتابِ
ولاقيتُ العدا وحفظتُ قَوماً ... أضاعوني ولَم يَرَعوا جَنابي

(الطموس، ٢٠٠٢: ١٤)

كان عنترة كثيرا ما يذكر عبلة في قصائده بهدف إثبات صفة التفوق والشجاعة لديه. ففي شعره الغزلي يذكر الاعداء الّذين قارعهم وقاتلهم، ويصف قدرته وصولته وإقدامه في ساحة الوغى، من دون خوف أو تردّد، يخبر عبلة بدوره البارز، وقتاله البطولي، وسط القتال، وبين

أسنّة الرّماح، إثارة لمشاعرها، وتقرّباً منها ويتحدث عن بطولاته ووصف انتصاراته ومفاخره الّتي لم يشاركه فيها (بنت الشاطي، ١٩٦٧: ٣٧). فيُحاول عنترة التغلُّب على نقاط ضعفه ويميل نحو تعويض ذلك العجز والفشل إلى نجاح وتفوّق في موقف آخر وهو تمجيد خصائله حتّي يُقلّل من حدّة التوتّر الناتج عن حالة الإحباط الّتي يتعرّض له... كقولِه:

هلاّ سألتِ الخيلَ يا ابنة مالك ... إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي...
يُخبرك مَن شهدَ الوقيعة أنّني ... أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنمِ
ولقد ذكرتُك والرماحُ نواهلُ ... منّي وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي
فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأنّها ... لمعت كبارق ثغرِك المتبسّمِ...

(الطموس، ٢٠٠٢: ١١٨)

إنّ صياغ العبارة الشعرية عند الشاعر بأسلوبِ «الأنا» لا يعتبر إلاّ تأكيداً لاعتزازه بشجاعته وفروسيته وسمُوّ عفّته بدلَ أن يتكلّم عن مجد قبيلته ورفعتها، فله دوافعٌ وأسبابٌ ثلاثة: السبب الأوّل اضطراره على تزكية نفسه أمام أبيه، الّذي نبذَه لأنّه أبن أمة، والثاني إلى إظهار خصاله أمام عبلة ـ الحبيبة ـ الّتي لم تكن تَقَبَّل بالزواج من ابن زبيبة، والثالث إلى إبراز شمائله وقوّته أمام قبيلتِه (معاليقي، ١٩٩٨: ٧٣). يتحدّث الشاعر بضمير المفرد ويُباهي بفروسيّته وكرمه وعفّته لا بأمجاد قومه؛ لأنَّ عنترة كان في وضع خاص اضطرَّه إلى أن يزكي نفسَه لدى أبيه الّذي لم يلحقه بنسبِه وإنّه ابنُ أمة غير عربيّة ولدى عبلة الّتي كانت لترضى بالزواج من «إبن زبيبة» ولدى قبيلته الّتي نبذته مع أبناء الإماءِ» (بنت الشاطئ، ١٩٦٧: ٣٧).

الشاعر قد استخدم كلمة «هلاّ» التحضيضية فيحضّ على السؤال عن اغتماره فيالمعارك و تعفّفه عند المغانم ويتضمّن فيها قدراً من الفخر والشجاعة الّتي يُراد حدوثهما حتّى مع إتّصال هلاّ بالماضي (الجبوري، دون تا: ١١). فالفخر الخاصّ في شعر عنترة له مبرّرات دفعت الشاعر إلى الخروج على مألوف الشعراء القبائل في فخرهم العام.

يصف عنترة حبَّه لعبلة وشجاعتَه، في الواقع هذه الابيات الغزليّة تتكوّن من أفكار جزئيّة منها: إنكشاف سرِّ الشاعر أي سرّ العشق وكثرة الاشتياق لصيانة الحبّ وعفته، السعي في إخفاء الحزن والضعف في طريق حبّه (بنت الشاطئ، ١٩٦٧: ٣٧). وإن كانت قصائده الغزليّة وسيلةٌ لإبراز مودّته الى عبلة وتعبيرٌ عن حالاته المؤلمة بسبب فراقِه وغفلته عن محبوبته؛ لكن هذه الحالة المؤلمة لا تؤدّي الى البكاء والجزع وإظهار الحسرة بل هو يسعى ويجمع كلّ جهوده حتّى يُعبّر عن شجاعته وإفتخاراته لمحو كلّ عيوبه فيقول:

سـلي يـا عبـلَ قومَـك عـن فَعـالي ومـن حَضَـرَ الوقيعَـة والطِّـرادا
وردتُ بمهجـتي بحـرَ المَنايـا ونـارُ الحـربِ تّتقِـدُ اتّقـادا

(الطموس، ٢٠٠٢: ٢١٧)

تطبيقاً لنظرية «التعويض» لآدلر قد أبدع عنتره إبداعاً جديداً فيه وهذا التعويض في رأي أدلر يُحسَب من الأعمال الخارقة للفرد وبالتالي إذا كان الشخص يُعاني من عقدة النقص، فيكون علاجه: تربيّة استعداداته وقدرته حتى تكون مقدمة لظهور القيم الإيجابيّة وانتصاراته وقد جعل عنترة عبلةَ وسيلة لبلوغ غاية وإن كان عنترة يحبّها حبّاً مُفرطاً إمّا يبدو أنّ هذا الحبّ ليس مردّه إلى أنّ عبلة بطلة تتميّز بخصائص جماليّة ولا تتوافر مثل تلك الخصائص لدى بنات جنسها ولكن لأنّها إبنة عمّه وهي سيّدة كريمة ثمّ إنّ والدها رفض بأن تتزوّج إبنته مع عنترة وهو المُلحق بطبقة العبيد فهو أي (شداد) فمن هذا المنطلق ينشأ الصراع وتُصبح هذه الحبيبة وسيلة لبلوغ غايتِه الساميّة؛ لأنّ ذات الشاعر لن تحقق انسجامها وتوازنها في ظلّ القيم الجاهليّة القبليّة إلاّ بعد أن يتمكن من نيل الموافقة على زواجه من عبلة لأنَّ قبول زواج منها، يعني تحرّره من العبوديّة (معاليقي، ١٩٩٨: ٧٣). فحبّه هنا يعني التحرّر والانطلاق أكثر ممّا يعني بلوغ هدفه المادّي وهو مجرّد الاقتران بمن أحبّه ويكاد اسمُ عبلة لا يخلو من جُلّ أشعاره. يمكن تكراره لا سم عبلة، في شعره يُنبئ عن إصراره على تحقيق حريته الوجودية وإلى أنّ هذا الاسم هو أقرب إلى الرمز منه إلى مجرّد ذكر للحبيب، كما جرت العادة لدى كثير من الشعراء.

التخييل

يعتقد آدلر أنّ هناك علاقة بين الشعور بالنقص وبين التخييل[1] (پروين، ١٣٨٠: ١٣٠). فعنترة بسبب شعوره بالنقص ولأن يستولي ويغلب عليه يلجأ إلى التخييل. وللاستيلاء على حاجته يبالغ في تخييله؛ ففي شعوره هو فارس وحيد في الأرض يحاربهم وحده وهم مذلّون عن طموحه الكبير حتى تفّوق من الثريا.

ومازالـت صـوارمُنا حِـداداً تُقـدُّ بهـا أناملُنـا الحديـدا
ملأنـا سـائرَ الأقطـارِ خوفـاً فأضـحى العـالَمون لنـا عبيـداً
وَجاوزنـا الثّريـا في عُلاهـا ولم نتـرك لقاصـدنا وفـودا
اذا بلـغ الفطـامَ لنـا صـبي تخُـرُّ لـه أعادينـا سُـجودا

(الطموس، ٢٠٠٢: ٩١)

1. Imagination

إنّ الفروسيّة العربيّة تنبثق من فكرة الموت المهولة ولذلك جاءت مُتحمّسة ضارية تتجاوز الحدودَ إلى الغلوِ والتجبّر والإسراف؛ حتّى إنَّ الشاعر الجاهلي (عنترة) وهو في غمرة نشوته والتذاذه بقوّته وجبروته واعتداده بذاتيّته وهو يُواجه الموت، يرى ذاته الموت نفسه، أي أنّه يتسلّب من الموت ماهيّته (الجهاد، ٢٠٠٧: ١٨٤).

إنّ المنيّـــةَ لـــو تُمَثَّـــلُ مُثّلـــت	مثلـــي، إذا نزلـــو بضـــنك المـــنزلِ

(الطموس، ٢٠٠٢: ٢٥٢)

يجمع عنترة بين غرابة التشكيل وتعقيده في علاقات متشاكبة ماكان لينتبه إليها لولا حدّة وعيه واصالة إحساسه بالأشياء، كما في هذا النموذج الّذي أشاد إعجاب القدماء وسمّوه التشبيه العقيم ـ لم يسبقه إليه أحد ولا قلّده فيه أحدٌ ـ لفرادته وغرابته (الطموس، ٢٠٠٢: ٢٢٣). إنّ هذه المبالغةَ ستؤدّي وظيفةً تأثيريّةً بالغةً في وعي المتلقّي وتستفزّه لإدراك العلاقات القياسيّة الّتي يَنطوي عليها ويَزيد من فاعليّة التخيُّل ويبدو أنَّ عنترة مولعٌ بهذه الطريقة في التشكيل الّذي يُشرك المُتَلقّي قسراً في تحقيق المعنى. يقول في قوله الآخر:

ومُـــدجّجٍ كـــرِهَ الكمـــاة نزالَـــه	لا مُمعـــنٍ هرَبـــاً ولا مُستســـلِمِ
جـــادت يـــداي لـــه بعاجـــلِ طعنـــةٍ	بمُثقَّـــفٍ صـــدقِ القنـــاةِ مُقَـــوّمِ
برحيبـــةِ الفَـــرغينِ يهـــدي جَرسُـــها	باللّيـــلِ مَعـــتَسَّ السّـــباعِ الضُـــرّمِ
كمّشـــتُ بـــالرُّمحِ الطويـــلِ ثِيابَـــه	لـــيسَ الكـــريمُ علـــى القنـــا بمُحـــرّمِ
وتركتُـــه جـــزرَ السِّـــباعِ يُنشـــنَه	مـــا بـــينَ قلّـــةِ رأسِـــه والمِعصَـــمِ

(الطموس، ٢٠٠٢: ٣٦٨)

إنّ الشاعر في هذا المشهد التخييلي يشكل لنا صورةً غاية في القسوة لقتيله، فقد طعنه بالرّمح طعنة نافذة يتدفّق الدم من جانبيها ويتداعى نهرا هائجا يصرخ بحيث تهتدي السباع له في اللّيل ثمَّ يتركه وهي تمزق جسده. الشاعر يثبت بهذه القسوة شجاعته وجمال ذاتيّته ضمنيّاً. فالتخييل في شعر عنترة ليس من جوانبه السلبيّة بل يلعب دوراً إيجابياً وهامّاً في تخييل الشاعر وتنمية شعره.

أسلوبُ الحياة

وإنّ من المبادئ الأساسيّة في نظريّة أدلر هو أسلوب الحياة[1]، بمعنى أنّ لكلّ فرد أسلوباً خاصّاً صبَّت فيه شخصيّته فالإنسان في بداية حياته ليس إلاّ نتيجة حالاته العضويّة وخبراته النفسيّة وعلاقاته الإجتماعيّة وهو الأسلوب الّذي يسود حياة الفرد من جميع نواحيها. وطريقة كل شخص تختلف عن شخص آخر ويُسمّى أدلر هذه الطريقة الفريدة من نوعها «أسلوب الحياة» وهو مجموعة من الأهداف والعادات السلوكية والمعتقدات والمواقف والرغبات في حياة الشخص وتشتمل مجموعة من المعتقدات والخُطَط ونماذجا لسلوكيات المعتادة، والآمال وبعبارة أخرى، فإنها الإفتراضات الَّتي تحتوي الأفكار والمشاعر والتصورات والأحلام. أسلوبُ الحياة؛ نوعٌ معين من رَدّ فعل نمطا لحياة ضدّ مشاكل الحياة، للوصول إلى الهدف المعيّن (شالچيان، ١٣٧٣: ٢٢٩). ومن مصاديق أسلوب الحياة لدى الغرب أنّهم كانوا يحرصون على المثُل العاليّة والخصال النبيلة، ويفتخرون بأدائها والوفاء بحقّها ومن تلك الخصال «حفظ الجوار والوفاء بالعهد فهم يحرصون على جارهم حرصَهم على شرفهم والتعفف» (الجبوري، ٢٠٠١: ٦٧).

وممّا يدلّ على اسلوب حياة عنترة أنَّ من أهمّ الصفات الَّتي حفل بها شعره ما كان متعلقاً بالمرأة فهو رجلٌ صاحب غيرة، لايَقبل أن تُصاب نساء القبيلة بسوءٍ ولا أن تتمكَّن منهنَّ قوَّةً أخرى (علي الصبّاح، ١٩٩٠: ٥٥). فهو يفتخر بالدفاع عن نساءِ القبيلة وأنّه صاحب قوة وحمَية وغيرة فهو لا يكاد يرى امرأةً واقعةً في الخطرِ حتّى يَقذف بنفسه في أتون المعركة الّتي يُدافع عنها ويسعى من أجل خلاصها ولا يبغي من وراء عمله هذا إلاّ أن يُوصف بحسن الأخلاق وطيب العنصركقوله:

أغشى فتاةَ الحيّ عند حليلها ... وإذا غزا في الحرب لا أغشاها
إنّي إمرؤٌ سمحُ الخليقة ماجدٌ ... لا أتبع النفس اللّجوج هواها

(الطموس، ٢٠٠٢: ٩٨)

ومن أساليب حياة العرب الجاهلي التمتّع بالخمر وقلّما تجدَ شاعراً في الجاهليةِ لا يذكر الخمرَ فهي مظهرٌ من مظاهر الفتوّة والشباب والقوّة؛ فنرى عنترة أنّه يستهلك ماله في الخمر لصيانة عرضه ويفتخر بما يفعل في حال صَحوه ويقول:

1. Life Style

فـــإذا شـــربتُ فـــإنّني مُســـتهلك مـــالي وعرضـــي وافـــرٌ لم يُكلَـــمِ
وإذا صـــحوتُ فمـــا أقصّـــرُ عـــن نـــدىً وكمـــا علمـــتِ شمـــائلي وتكرّمـــي
(الطموس، ٢٠٠٢: ٨١)

كما أنَّ الذود عن أرض القبيلة، وحماية العرض والتعفّف عند المغنم تعدّ من القيم السامية لديهم فنرى عنترة بن شدّاد صاحب خلق حسنة، رقيق القلب، كريم النفس وذكر أنّه كان من أشدّ اهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده. ويعلن أنّه يخوض الحرب لا من أجلِ المغانم والأسلاب وإنّما من أجلِ إثبات فروسيّتِه:

ينبئـــك مـــن شـــهد الوقيعـــة أنـــني أغشـــى الـــوغى وأعـــف عنـــد المغـــنم
(الطموس، ٢٠٠٢: ٨٢)

إنَّ عنترة يواجه كبّار الفرسان، ويتعفّف عن سلب الغنائم في الحرب وبأس خصمه. في السّلم يغضّ طرفه عن الجارة لإثبات عفّته:

وأغـــضّ طـــرفي مـــا بـــدت لي جـــارتي حتّـــى يُـــواري جـــارتي مأواهـــا
(الطموس، ٢٠٠٢: ٩٨)

ومن مظاهر آسلوب حياة عنترة أنّ له خصال حميدة تخلقت بها وهي الكراهيّة الشديدة للفَحشاء ويشير إلى أنّ سواد بشره كما قلنا لا يوجب عقدة النقص الّتي تؤدّي بعض النّاس إلى الفحشاء بل إنّه يفتخر بسواد بشرته يشبهها بالمسك ويصرّح بإنَّ عنترة بعيد عن الفَحشاءِ كبُعد الأرض عن السماءِ.

لـــئن أكـــن أســـوداً فالمســـك لـــوني ومـــا لســـواد جلـــدي مـــن دواء
ولكـــن تبعـــد الفحشـــاءُ عنّـــي كبُعـــدِ الأرضِ عـــن جـــوِ الســـماءِ
(الطموس، ٢٠٠٢: ٢٢)

كما أنّ الفروسية والذود عن القبيلة كانا عنصرين هامين في أسلوب الحياة الجاهلي فعندما كان المجتمع الجاهلي لايعترف بمكانة لعنترة ولا يعتبر له مرتبة الأحرار «لأنّ إبن أمة سوداء» (يوسف أبوزيد، ٢٠١١: ١٦١) فحسب ما أتينا عن ألفرد آدلر أنّ: « الناس يلجئون إلى آليّات الدفاع أو الحيل الدفاعيّة لحماية أنفسهم وخفض القلق، ومن هذه الآليات «أسلوبُ الحياة» (هويدي، ١٤٢٦: ٧٩).

فإن عنترة أيضا من خلال إحساسه بالدونيّة، قد لجأ إلى أسلوب الحياة الجاهلي فنبعت في قصائدهما يؤكد على فروسية الشاعرو تهيّئه للدفاع عن القبيلة فيتغنّي بشجاعته وإقدامه ليثبت هيبته في نفوس أقرانه، ويخفّف عن حالته النفسيّة العميقة الأثر فيقول:

يـــدعون: عنتـــرَ والرمـــاح كأنّهـــا أشـــطانُ بئـــرٍ في لَبـــانِ الأدهـــمِ
ولقـــد شـــفى نفســـي وأبـــرأ سُـــقمَها قيـــلُ الفـــوارِسِ: ويـــك، عنتـــرَ أقـــدمِ
(الطموس، ٢٠٠٢: ١١٧)

النتائج

الدراسة هذه توصلت إلى أنّ آدلر يعتقد أنّ الحياة النفسيّة للفرد يحكمها الشعور بالنقض أو الدونيّة، وأنّ الكبت وعقدة النقص عاملان من العوامل الَّتي أثرت في شخصية الفرد وبالنسبة إلى الشاعر المدروس أثبتنا أنّ سواد بشر عنترة لا يوجب عقدة النقص الّتي تؤدّي بعض الناس إلى الفحشاء بل إنّه يفتَخر بسواد بشرته ويشبهها بالمسك.

إنّ عنترة يخوض في مجال الفخر الذاتي ليرفع ما لحقه من أذى حين امتهن وعيّرَ بسواده وضعة أصله. فالفخر هو الاتجاه الغالب في شعر عنترة؛ لأنّه يعتبر الفخر آلية لإزالة الضغوط الموجودة لديه، وهو وسيلة للتنفيس عن نقمة تختلج في نفسه.

العبودية هي الَّتي جعلت الشاعر ان يُصوِّر معاناته النفسية وإحباطاته الذاتية دون أن يتحرّج من ذكر بعض مظاهرها الخارجية، فالكبت وعقدة النقص بسبب سواد وجه الشاعر وعبوديته من العوامل الَّتي أثرت في شخصية عنترة، وأججّت طُموحَه إلى المجد والشعر والفروسية والتسامي أو التفوُّق.

في مجال التعويض عن عقدة النقص لعنترة إنّ روحه تاقت إلى الحرية والانعتاق وأبدع إبداعاً جديداً فيه؛ ففاعلية هذه الحيلة الدفاعية أدّت إلى حبه لابنة عمه عبلة، وهي من أجمل نساء قومها في نضارة الصبا وشرف الأرومة، بينما كان عنترة إبن جارية فلحاء، أسود البشرة، وذاق في صباه ذُلّ العبودية، والحرمان وشظف العيش والمهانة؛ فيحافظ الشاعر في جُلّ قصائده على ذكر عبلة.

وممّا يدلّ على مصاديق اسلوب الحياة ـ كمبدأ رئيسي عند آدلر ـ لدى عنترة أنّه يفتخر بالدفاع عن نساءِ القبيلة وأنّه صاحب قوةٍ وحمَية وغيرة فهو لا يكاد يرى امرأة واقعة في الخطر حتّى يَقذف بنفسه في أتون المعركة الّتي يدافع عنها ويسعى من أجلِ خلاصها ولا يبغي من وراء عمله هذا إلاّ أن يوصف بحسن الأخلاق وطيب العنصر فيستهلك ماله في الخمر ويتعفّف عند المغنم لصيانة عرضه وأنّه يخوض الحرب لا من أجل المغانم والأسلاب وإنّما من أجل إثبات فروسيّته

المصادر والمراجع

١. آدلر، آلفرد (١٣٧٩ش). *شناخت طبيعت انسان از ديدگاه روان شناسي*. ترجمة طاهرة جواهرساز، طهران: انتشارات رشد.

٢. احمديان، حميد؛ وآخرون (١٣٩١ش). «التحليل النفسي لشخصية بشار بن برد من خلال جولة في حياته وأشعاره». *فصليّة لسانٌ مبين*، العدد ٨، ص١-١٨.

٣. الأعلم الشنتمرّي، يوسف (دون تا). *أشعار الشعراء الستة الجاهليين*. بيروت: دار الكتب العلمية.

٤. برونو، فرانك (١٣٨٤ش). *فرهنگ توصيفي روان شناسي*. ترجمة فرزانه طاهري ومهشيد ياسايي، ط ٣، طهران: انتشارات ناهيد.

٥. بنت الشاطئ، عائشة (١٩٦٧م). *قيمٌ جديدةٌ للأدب العربي القديم والمعاصر*. ط ٢، القاهرة: دار المعارف.

٦. پروين، جان (١٣٨١ش). *شخصيّت، نظريه وپژوهش*. ترجمة محمد جعفر جوادي وپروين كديور، طهران: آييژ.

٧. حسين، عبدالرّزاق (١٩٩٨م). *في النص الجاهلي؛ قراءة التحليليّة*. القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.

٨. الجبوري، منذر (دون تا). *أيّامُ العرب وأثرها في الشعر الجاهلي*. بغداد: منشورات وزارة الأعلام.

٩. الجبوري، يحيى (٢٠٠١م). *الشعر الجاهلي؛ خصائصه وفنونه*. ط ٩، بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٠. الجهاد، هلال (٢٠٠٧م). *جماليّاتُ الشعر العربي، دراسة في فلسفةِ الجمال في الوعي الشعري الجاهلي*. بيروت: مركز دراسات الوحدةِ العربيّة.

١١. الزيات، حسن (١٩٨٥م). *تاريخ الأدب العربي*. بيروت: دار الثقافة.

١٢. شايگانفر، حميدرضا (١٣٨٦ش). *نقد ادبي (معرفي مكاتب نقد)*. ط ٣، طهران: انتشارات دستان.

١٣. ضيف، شوقي (٢٠٠٣م). *تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)*. ط ٢٤، القاهرة: دار المعارف.

١٤. الطمّوس، حمدو (٢٠٠٣م). *ديوان عنترة بن شدّاد*. بيروت: دار المعرفة.

١٥. عبدالرّحمن محمّد، إبراهيم (٢٠٠٠م). *الشعر الجاهلي قضاياه الفنيّة والموضوعية*. لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.

١٦. عرب، عباس؛ حق پناه، يونس (١٣٩٠ش). «التحليل النفسي في أشعار صعاليك على أساس نظرية آدلر». *فصلية محكمة للغة العربيّة وآدابها*، جامعة طهران.

١٧. فضل، صلاح (١٤١٧هـ). *مناهج النقد المعاصر*. القاهرة: دار الآفاق العربية.

١٨. ليبين، فاليري (دون تا). *التحليل النفسي والفرديّة الجديدة*. ترجمة نزار عيون السود، دمشق: دار الوثبة.

١٩. معاليقي، مُنذر (١٩٩٨م). *أدب عرب الجاهليّة والإسلام*. بيروت: دار الكتاب العربي.

٢٠. معروف، يحيى؛ خزلي، مسلم (١٣٩١ش). «النقد النفسي للشخصيّة في أشعار المتنبّي». *فصلية الأدب العربي*، العدد ٢، ص٢١٥-١٩٣.

٢١. نويل، جان بيلمان (١٩٩٧م). *التحليل النفسي والأدب*. ترجمة حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة والنشر.

٢٢. هويدي، صالح (١٤٢٦ه). *النقد الأدبي الحديث؛ قضاياه ومناهجه*. منشورات جامع سابع من إبريل.

٢٣. يوسف أبوزيد، سامي؛ كفاني، منذر ذيب (٢٠١١م). *الأدب الجاهلي*. عمان: دار المسير للنشر والتوزيع والطباعة.